البداية حاول هذا « المثقف العضوي » ان يكتب تاريخ بلاده ، فكتب « جذور القضية الفلسطينية » ، وكتب في صحيفة «الاتحاد» وفي مجلتي «الجديد» الشهرية و «عراخيم» النظرية ، التي يصدرها حزب راكاح · وفي كتابه الجديد لا يشذ عن مساره بل يتابع نقطة البداية ·

مشروع « مؤرخنا » طموح ·· يبدأ من السنوات الصعبة الاولى ومن بدايات التآمر ليصل الى السنوات الصعبة « الاخيرة » · وتتراكم صفحات الكتاب لترسم التاريخ بين ضفتين : وعد بلفور وحاضر المقاومة الفلسطينية ·

ان طموح المشروع « الدراسي » لا يعطيه قيمته بالضرورة ، فقد يبقى بين المشروع والتحقق مسافة ، وهذه المسافة تحاصر الطموح وترجعه الى عمل عادي ·

ان طموح توما الذي حاول رصد كل التاريخ ارجع عمله الى مجرد دراسة وثائقية تفتقر الى التحليل والى الانارة الكافية · والكتاب في اكثر من مكان يتجلى كعمل ناقص ومبتور ، كأجابات على اسئلة غائبة او كأسئلة لاجابات يعوزها الحضور والوضوح ·

بدأ الشعب الفلسطيني يتلمس اخطار المشروع الصهيوني منذ نهاية القرن التاسع عشر · ومنذ ذلك التاريخ تواصل النضال الوطني الفلسطيني واخذ اشكالا مختلفة، وتلاحق وتطور كنضال فلسطيني وعربي ·

يستعرض كتاب توما تطور الحركة القومية العربية في الشرق العربي ، وانتقالها من شكلها القومي الشامل الى حركة قومية اقليمية ذات تيارات متباينة · وفي عملية التقاء وتفارق النضال العربي تكونت الحركة القومية العربية في فلسطين وعبرت عن نفسها في حركة الجماهير العفوية وفي نشوء الجمعيات الاسلامية ـ المسيحية · الا ان انتقال الحركة القومية من شكلها العام الى شكلها الخاص لم يلغ طموح « الوحدة السورية » لان الالغاء « يضر بمصالح البلاد الاقتصادية والعمرانية ·· وبمصالح الوطنيين الثورية المحلية » ·

وفي هذا المسار انقسم القوميون في فلسطين الى قسمين ، الاول انخرط في التيار القومي والاقليمي الذي فرضته الظروف الجديدة التي خلقها اقتسام القوى الامبريالية العالم العربي ، واستمر الفريق الثاني يعمل من اجل معركة قادمة تطمح الى تحرير وتوحيد سوريا الطبيعية ·

اعتبر توما انعقاد المؤتمر الفلسطيني الثالث (١٩٢٠/١٢/١٤) بداية التنظيم القومي العربي في فلسطين ·

وفي المؤتمر الخامس (١٩٢٢) رفض المحتمعون بضغط من الجماهير مشروع المجلس التشريعي الذي طرحته بريطانيا · اما لماذا رفض المشروع رغم انتساب اكثرية القادة الى طبقة اسياد الارض ذوي العقلية الاقطاعية بغض النظر عن مشاعرهم القومية ، ورغم اعتقادهم بامكانية التفاهم مع الامبريالية البريطانية ، فيرجع ذلك الى الضغط الشعبي المذكور والى التناقض الذي برز داخل المؤتمر بين اولئك الذين ارادوا المهادنة مع بريطانيا واولئك الذين ارادوا موقفا صلبا من المناورات البريطانية · ويقول توما ، ان قبول المجلس التشريعي كان سيوهن الكفاح الوطني ويضعف الكفاح القومي ، ويستنتج : « وهكذا صدق القوميون في موقفهم » ·

عبر التناقض في القيادة القومية الفلسطينية عن نفسه في المؤتمر وفي نشوء منظمات سرية تدعو للكفاح المسلح ، كمنظمة « الكف الاسود » ·